

تجدُّد الخطاب القرآني - قراءة تدبرية في حيوية النص القرآني وإعجازه -

The Renewal of the Qur'anic Discourse: A Contemplative Reading
on the Vitality and Inimitability of the Qur'anic Text

نور الدين لعموري¹ بلخير طاهري²

¹ مخبر مخطوطات شمال إفريقيا، جامعة أحمد بن بلة، وهران 01، الجزائر

lamourinour60@gmail.com

² مخبر مخطوطات شمال إفريقيا، جامعة أحمد بن بلة، وهران 01، الجزائر

unvtahri@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/05/27 تاريخ القبول: 2025/06/15 تاريخ النشر: 2025/06/30

الملخص:

يسهم البحث في التركيز على مسألة في غاية الأهمية وهي تجدُّد الخطاب القرآني وبيان حيويته ، وأن مسألة التجدُّد هي وجّه من أوجه إعجاز القرآن ، وتعتبر هذه المسألة لبّ الخلاف بين فريق يخدم القرآن ويبتهد في بيان مراده في كل عصر ، وفريق يطعن في القرآن ويثير حوله الشكوك بكل المتاح ، لذلك كان الهدف من البحث تسليط الضوء على ملامح تجدُّد الخطاب القرآني، وإبراز كيفية تفاعله المستمر مع الإنسان والواقع ، إضافةً إلى بيان التدبر كأقْفٍ لفهم النص دون الخروج عن أصوله ، وكذلك إبراز ملامح القراءة التدبرية خاصة في الجانب الهدائي والموضوعي والإعجازي.

وقد خلصنا إلى أن الدعوة إلى تجديد الخطاب ينبغي ألا تتجاوز تجدُّد القرآن باعتباره المصدر الأول للتشريع ولا يكون ذلك إلا بضوابط أقرها الباحثون ، ومنها أن ملامح التفسير في طور التجديد كالاتفات إلى تدبر القرآن كفن والتفسير الموضوعي وأوجه الإعجاز والإسقاط على حال الأمة كان نتاج الانطلاق من قاعدة الهداية المتجددة للقرآن.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني ، التجدد ، التدبُّر ، حيوية النص.

Abstract:

This study focuses on a highly significant issue: the renewal of the Qur'anic discourse and the demonstration of its vitality. The notion of renewal is presented as an aspect of the Qur'an's inimitability. This subject represents the core of the dispute between two groups: one that seeks to serve the Qur'an by striving to elucidate its meanings across ages, and another that attacks the Qur'an and casts doubts upon it by all means available.

The research aims to highlight the features of the Qur'anic discourse's renewal and to demonstrate its ongoing interaction with human beings and contemporary realities. Additionally, it explores tadabbur (deep contemplation) as a means of understanding the Qur'anic text without deviating from its foundational principles. It also emphasizes the hallmarks of contemplative reading, particularly in the realms of guidance, thematic interpretation, and inimitability.

The study concludes firstly that calls for renewing religious discourse must not exceed the natural renewal embedded within the Qur'an itself, which remains the primary source of Islamic legislation, and which must adhere to scholarly-established frameworks; and secondly, that recognizing tadabbur as an art, embracing the thematic interpretation, highlighting aspects of inimitability, and applying the Qur'anic guidance to the realities of the Muslim community stem from the principle of the Quran's renewable guidance.

Keywords: Qur'anic Discourse, Renewal, Tadabbur, Vitality of the Text.

مقدمة:

يُعدّ القرآن الكريم أرقى صور الخطاب من حيث الأسلوب والمعنى، ومن حيث مصدره الإلهي وطريقته تنزله، وكذلك من حيث طبيعته المخاطبين به. وقد شغل هذا الخطاب مساحةً زمنيةً ومكانيةً محدودةً من حيث تنزله التدريجي ومسايرته للأحداث والوقائع، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾¹ ، إلا أنه، من جهة أخرى، يمتد في الزمان والمكان من حيث إعجازه وهيمته وشموليته خطابه للإنسان في كل عصرٍ.

وقد تعددت المواقف من أطروحات "تجديد الخطاب الديني" بين معارضٍ لها ومنتصر، ومستدرِكٍ عليها ومقتصر؛ غير أن التجديد المنشود يبقى مشروطاً بالالتزام بالضوابط المنهجية، وباستحضار السياقات الزمنية والثقافية للنص والمتلقي معاً.

وغالبًا ما يقع الخلط بين الخطاب القرآني والخطاب الديني، مما يؤدي إلى التعامل مع النص القرآني بمعزل عن مصدره الإلهي، وعن حيويته وإعجازه المتجدد. وهنا يُطرح السؤال المشروع: إذا فرضنا أن تطور حاجات الناس وتغير اهتماماتهم يقتضي تجديدًا في الخطاب، فهل ينصرف هذا التجديد إلى الخطاب الديني بقراءة متجددة للقرآن الكريم؟ أم إلى قراءة تاريخية للنص تخدم روحه وتهدر مرجعيته الثابتة؟ ومن هنا، جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ:

"تَجَدُّدُ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ - قراءة تدبرية في حيوية النص القرآني وإعجازه -

الإشكالية : تتركز الإشكالية فيما يلي :

ما العلاقة بين الخطاب الديني والخطاب القرآني؟

مادور التدبر في إبراز حيوية النص القرآني وإعجازه ؟

وماهي أهم ملامح القراءة التدبرية التجديدية لروح النص القرآني ؟

الأهداف : يهدف البحث إلى أغراض محددة أهمها الآتي :

1. تسليط الضوء على ملامح تجدد الخطاب القرآني، وإبراز كيفية تفاعله المستمر مع الإنسان والواقع في مختلف العصور.
2. استجلاء العلاقة بين التدبر وحيوية النص القرآني، وبيان كيف يفتح التدبر آفاقاً جديدة لفهم النص دون الخروج عن أصوله.
3. إبراز ملامح القراءة التدبرية للقرآن التي تدل على حيويته وتجدد حضوره، خاصة في الجانب الهدائي والإعجازي والسني.

المنهج : اعتمدت هذه الدراسة على **المنهج التحليلي** في تتبع المفاهيم المركزية للبحث من خلال تحليل السياقات النصية واللغوية التي وردت فيها ، كما وظّفت الدراسة **المنهج التدبري** في قراءة النص القرآني قراءة تأملية ، تستخرج أبعاده الحية وآفاقه المتجددة.

1. الخطاب القرآني وعلاقته بالخطاب الديني :

1.1 : تعريف الخطاب القرآني :

- الخطاب لغة : والخِطَابُ والمِخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالْكَلامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَاباً²، وفي المعجم الوسيط (الخطاب) الكلام وفي التنزيل العزيز: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾³.

- اصطلاحاً : الخطاب هو توجيه الكلام إلى حاضر وقد يترك الخطاب مع معين إلى غيره ليعم الخطاب كل مخاطب⁴.

والرابط بين المعنيين اللغوي والاصلاحي أن الخطاب عملية تعبير وإفهام يشترك فيها الملقى والمتلقي

- القرآن لغة : من قرأ، ورد في لسان العرب: قرأ: القرآن: التنزيل العزيز،... قال أبو إسحاق النحوي: يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه، ﷺ، كتاباً وقرآناً وفرقانا، ومعنى القرآن معنى

الجمع، وسمي قرآنا لأنه يجمع السور، فيضمها. وقوله تعالى: إن علينا جمعه وقرآنه، أي جمعه وقرآته، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، أي قرآته⁵.

- أما اصطلاحا : فقد اختص القرآن بخصائص كثيرة لذلك تعددت تعريفات العلماء له حيث يذكر كل عالم أهم الخصائص المعرفة للقرآن ، ومن هذه التعريفات : " القرآن هو كلام الله المنزل على النبي مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه "⁶.

- من خلال التعاريف السابقة يمكن أن نعرف الخطاب القرآني بأنه " توجه الله تعالى بكلامه المبين للناس أجمعين " فالقرآن الكريم هو خطاب رباني، يتميز عن غيره من الخطابات بخصائصه الفريدة، من جهة مصدره الإلهي، وصياغته البيانية، ومقصده الهدائي، وعموميته الزمنية والمكانية

والتوجه إلى الناس يعني شموليته لكل المخاطبين، دون حصر في زمان أو مكان أو فئة، وهذا ما يجعله خطابًا خالدًا متجددًا، يعالج الإنسان في كل أطواره وأحواله.

2.1 تعريف الخطاب الديني: يطلق مصلح الخطاب الديني ويراد به كذلك الخطاب

الإسلامي وإن كان الدين أعم من الإسلام والمقصود به : " الكلام الذي يستند لمرجعية إسلامية من أصول القرآن والسنة، وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء أكان منتج الخطاب جماعة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو أهلية أم أفرادًا متفرقين جمعهم الاستناد للدين وأصوله مرجعية لرؤاهم وأطروحاتهم، ولإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يحيونها، أو للتفاعل مع دوائر الهويات القطرية أو الأُممية أو دوائر الحركة الوظيفية التي يرتبطون بها ويتعاطون معها⁷.

وقد تم تداول هذا المصلح في سياق التجديد والنقد والتقييم ، وظهرت عدة مدارس وتوجهات في مسألة تجديد الخطاب مع ربطه بالنظم الاجتماعية والواقع الرسمي القائم⁸ ، ولم تخل دعوات التجديد من غلو وشطط بتجاوز القطعيات والثوابت مما جعل بعض المفكرين يتصدى لبيان ضوابط تجديد الخطاب الديني وحدود التجديد المشروع⁹.

3.1 العلاقة بين الخطابين القرآني والديني : من خلال تعريف الخطابين تتضح جليا أهم الفروق التي تساعدنا على تبيان منهجية التعامل السليم مع مسألة التجدد والتجديد في الخطاب كما سنبينه في المباحث اللاحقة ، ومن بين أهم الفروق بين الخطاب القرآني والخطاب الديني مايلي :

- الخطاب القرآني هو الأصل والمرجع والمصدر الأول للتلقي ، بينما الخطاب الديني هو الشرح أو البيان أو محاكاة النص القرآني في المستوى التطبيقي .

-الخطاب القرآني قطعي من حيث الورد ، بينما الخطاب الديني ظني قابل للخطأ والصواب .

- الخطاب القرآني شمولي خالد ومعجز ، بينما الخطاب الديني تاريخي ظرفي في كثير من الأحيان لذلك كانت سنة التجديد كل مائة سنة كما في الحديث : " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا دِينَهَا " ¹⁰

ولهذا فإن الحديث عن تجديد الخطاب الديني لا يعني أبداً المساس بالخطاب القرآني، بل يعني تجديد الآليات والفهوم التي توصل الناس إليه، بما يتلاءم مع السياقات الجديدة، دون أن يُمسّ النص ولا يُجرّد من إعجازه ومرجعيته مما يجعل القرآن حيويًا متجددًا ، والخطاب الديني محاكيا متغيرا سوى ماتعلق بالقطعيات والثوابت .

2. حيوية النص القرآني في ضوء التدبر :

1.2 مفهوم التدبر وحجتيه :

- **التدبر لغة :** مأخوذ من مادة (دَبَر) قال ابن فارس : ((وهو آخر الشيء وخلفه ، ودبرث الحديث عن فلان : إذا حدّثت به عنه وهو من الباب ، لأن الآخر المحدّث يدبّر الأول : يجيء خلفه .. وفي الحديث (ولاتدبروا..) ¹¹ ، وهو من الباب ، وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه...)) ¹² ، وقال ابن منظور : ((دبّر الأمر وتدبّره أي نظر في عاقبته ، واستدبره رأى في عاقبته مالم ير في صدره ، وعرف الأمر تدبّراً أي بأخّره)) ¹³ .

- التَّدْبِيرُ فِي اصْطِلَاحِ الْمَفْسِّرِينَ : تعددت تعريفات المفسرين لمصطلح التدبر ، وقد اخترت تعريف العلامة مُحَمَّد الطاهر بن عاشور وهو : "والتدبر التفكير والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني ، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه ، بحيث كلما ازداد المتدبر تدبرا انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر"¹⁴

وعرفه الشيخ عبد الرحمن حبنكة : " التدبر هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميهِ البعيدة " ¹⁵

- من خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي تظهر أهمية التدبر وحجيته بما فيها من إعمالٍ للفكر وتعمُّقٍ في النظر، وتوسيع دلالات النص القرآني لأبعاد ومرامي بعيدة ، وهذا فيه امتثال للأمر القرآني في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾¹⁶ ، وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾¹⁷

- وبالمقابل فيه دعوة لقراءة متجددة للقرآن الكريم تضيء له حيوية دائمة ، وتبين صلاحيته لكل زمان ومكان

2.2 حيوية النص القرآني : القرآن الكريم لا يخلُقُ على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، ومما اختصَّ به النص القرآني أنه قطعي الثبوت حيث أنه وصل إلينا متواترا لذلك بقيت حجته قائمة ، إضافة إلى حيويته ونظارته فهو يأتي في كل زمان وكأنه لم يفسر ، وقد عبر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وهي : " إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نصراً فتياً وغيضاً طرياً. نعم، إن القرآن الكريم -لأنه خطابٌ أزلي- يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه، فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان، حتى إنه ينظر إلى كلِّ عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتبانية في الطباع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملفئاً دروسه ملفئاً إليها الأنظار" ، ويقول: "إن آثار البشر وقوانين البشرية تشيب وتهرم، وتتغير وتتبدل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور." ¹⁸

واستحضارا لهذه الحيوية المتجددة كان علماء الإصلاح في طور التجديد يتعاملون مع النص القرآني ويعتبرونه أهم وسيلة للتجديد والإصلاح ويستخرجون درره وكنوزه.

3 التدبّر أفقُ لبيان حيوية النصّ وإعجازه : حوادث الزمان وأفضية الناس لا تحتاج إلى إنتاج نص جديد بقدر ما تحتاج إلى تفعيل العملية التدبرية للنص القرآني لإنتاج حلول جديدة ، لذلك كان التدبر مدخلا مهما لبيان تجدد الخطاب القرآني ولإبراز حيوية النص وإعجازه ، وإغلاق الباب أمام دعوات تاريخانية النص والخروج عنه بدعوى تجدد الحوادث ، لذلك نجد أن سمة التدبر والتزام قواعده وإعمال مقاصده كانت بارزة في تفاسير المحدثين ومنها :

1.3 أولوية البعد الهدائي للقرآن : والأصل في القرآن قبل كل التفسيرات اللغوية والمباحكات اللفظية أنه كتاب هداية وإرشاد : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾¹⁹ ، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾²⁰ ، وذلك بعدم الوقوف على معنى النص القرآني الظاهر وفقط، بل الالتفات إلى الهدايات القرآنية التي توجه إليها الآيات وإعطائها الأولوية لتحقيق المقصد الأسمى للقرآن الكريم، يقول أحد الباحثين: «فيجب أن يكون الغرض الأساسي الذي يستهدفه المفسر هو تجلية الهداية القرآنية في شتى مجالات الحياة وعرض واقع المسلمين على القرآن الكريم وتوجيهاته»²¹ ، ومن أوائل الذين دعوا إلى التعامل مع النص القرآني وفق هذه القاعدة، واستدراك ما كان في التفاسير السابقة من الحشو والتوسع الذي لا طائل منه الإمام محمد عبده والإمام رشيد رضا ، يقول صاحب المنار: «فالحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح»²².

ومن خلال تتبعي لتفسير الإمام ابن باديس نجده يركز كثيرا على البعد الهدائي للقرآن الكريم ، ويظهر ذلك في عناوينه الفرعية التي يضعها عند تفسيره للآيات القرآنية فيذكر مثلا: اهتداء واقتداء، أدب واقتداء، توجيه وإرشاد، موعظة، تنظير وتعميم... وهذه سمة بارزة لا تخفى على دارسٍ من أول نظرة إلى تفسيره²³.

فإبراز الهدايات القرآنية ببعدها الحيوي المتجدد من أهم الآفاق التدبرية ، يقول العلامة عبد العظيم الزرقاني : «وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة»²⁴.

2.3 التدبر الموضوعي للآيات والسور : وهو من الخصائص البارزة المميزة للقراءة التدبرية ، وأول مرحلة منهجية للتعامل مع النص القرآني هي تفسير القرآن بالقرآن ، وقد ظهر الربط الموضوعي للآيات من أول النزول، فقد فسر النبي ﷺ مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾²⁵ فقال: «مفاتيح الغيب خمس : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»²⁶ ، وسار على هذا المفسرون في تفاسيرهم.

ولكن محاولة الالتفات إليه كفن من علوم القرآن له ميزاته وخصائصه لم يظهر إلا في القرن الرابع عشر، أي تزامنا مع عصر النهضة على رأي بعض الباحثين²⁸.

وعُرف التفسير الموضوعي بأنه: "علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"²⁹.

ولا ريب أن نجد هذه السمة بارزة في القراءة التدبرية لبيان حيوية النص القرآني ، لأنه لا يمكن أن نبني أو نواجه قضية ما مهما كانت أبعادها إلا إذا عرفنا النظرة القرآنية المتكاملة حولها التي تعطي للمفسر المتدبر الحجة القوية باجتماع الآيات في الموضوع الواحد حتى يمارس عملية الإصلاح في البناء أو في مواجهة التيارات الفكرية المختلفة؛ «ومن خلال علل النصوص وهداياتها العامة ودلالاتها وظلالها نستطيع أن نصل إلى أنوار كاشفة ترسم لنا الطريق وتحدد لنا المعالم لتقويم كل مستحدث جديد، لذا لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، أو بأسلوب التفسير الموضوعي»³⁰.

والنظرة الكلية الشاملة للقرآن هي المفتاح الأول للتعامل معه، وهي المنطلق الأساس لفهمه وتدبره والتلقي عنه، وجعله أول وسيلة للإصلاح، وتعامل المفسرين في طور التجديد والإصلاح مع القرآن الكريم وفق هذه النظرة إنما هو للإشارة إلى أن القرآن الكريم عملاق ضخم في طبيعته وفي

مهمته وفي رسالته وفي إعجازه وفي علومه وموضوعاته، وفي مناهجه ونظمه وتشريعاته، وفي كل ما حواه وأشار إليه..... عملاق ضخم تستحيل تجزئته، ويصعب تقسيمه.

إن القراءة الموضوعية المتكاملة للقرآن الكريم والتعامل معه كبنية صلبة متينة الأركان يعطي قوة لنتيجة التدبر وحجة وحيوية لإسقاط النص القرآني على الواقع، ويبين بالمقابل عوارِ القراءة التجزيئية للنص القرآني وهي سمة ذمَّها القرآن الكريم³¹ لأنها تؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه.

3.3 توسيع معنى النص القرآني وإصلاح حال الأمة به : من ميزات القراءة التدبرية كذلك

عدم الوقوف على حرفية النص وتفسيره باللغة والأثر فقط، وإن كان هذا هو المرحلة الأساس التي يجب أن يمر بها كل مفسر سواء صرح بذلك أم لا، لأنه هو المرحلة الممهدة لتوسيع معنى الآية فيما بعد وبيان أبعادها في مختلف نواحي الحياة التي ترتبط بموضوع الآية، ومن ثم جعلها في إطار العملية التدبرية هي الأداة لإظهار تجدد القرآن بإسقاط معاني وأبعاد النص القرآني على واقع معيش، بناء لفكرة وتشبيهاً، أو تقعيداً لمعنى وتأكيذاً، أو ردّاً لشبهة وتفنيداً: «وقد حررت هذه القاعدة في التفسير الناس من قيود الماضي، وحملتهم على التفكير في كتاب الله والتوسع في تفسير آياته»⁽³²⁾.

ولإعطاء البعد الواقعي في التفسير لابد من توسيعه ليشمل السيرة وحياة الصحابة؛ فالسيرة هي التفسير العملي أو التطبيق الواقعي لمعاني الآيات القرآنية: «فعل المتدبر للقرآن أن يوسع التفسير وأن يدخل فيه كل سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه وشماله وفضائله، وكل ما صح من حياة الصحابة بالقرآن...وعندها يستفيد هذا القارئ فائدة تفسيرية وتربوية وسلوكية وإيمانية وعملية»، وهذا المعنى إذا ركز عليه المفسر يعتبر صورة من صور التجديد في التعامل مع القرآن، وقد نبه عليه كذلك الإمام ابن باديس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾³³ تحت عنوان فرعي؛ مُجَّد والقرآن نور وبيان فيقول: «وثانياً: أن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف على القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما»³⁴.

والتطبيق الواقعي لمعاني الآيات القرآنية يساعد المتدبر على أن يعيش بالقرآن في واقعه وأن يعالج به ما جدَّ من حوادث وفق قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، «وإن خطاب الله بالقرآن من كانوا في زمن التنزيل لم يكن لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته»³⁵، وهذه الخاصية إنما هي دعوة إلى تطبيق المهمة العملية للقرآن، «وانطلاقاً من الأغراض الأساسية للقرآن، وتطبيقاً للمهمة العملية الحركية له، فإن القارئ البصير لابد أن يلحظ البعد الواقعي لآيات القرآن، وأن يلتفت إلى انطباقها على الواقع المعاصر، وأن يدرك معالجاتها له، وتقومها لأمره، وإصلاحها لمنهجها ومظاهر الحياة فيه، إنه حينما يحرر الآيات من قيود الزمان والمكان سيجدها آياتٍ معجزةٍ حيَّةٍ»³⁶، ويقول في هذا المعنى الإمام ابن باديس: «نتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا، شفاءً لأمراض عقولنا، وأمراض نفوسنا، وأمراض مجتمعتنا»³⁷.

ومن هنا ندرك أنه: «لم يكن القرآن في أي يوم مثل غيره من الكتب؛ كتاباً بقي ضمن إطار معين أو مكان معين من طفولة الإنسانية، بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءاً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية، وهو يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع التحديات»³⁸.

4.3 التجرد من المقررات السابقة بوابةً لتجدُّد الفهم : دأب الكثير من المفسرين على مر العصور وهم يتعاملون مع النص القرآني فهماً وتفسيراً على نسق واحد في تتبع آياته حسب ترتيب المصحف، وذكر أقوال أهل اللغة والبلاغة والبيان، وذكر أوجه القراءات وغير ذلك، مع اختلاف مناهجهم وطرائقهم واتجاهاتهم ، ولما وصلت الأمة إلى القرن الرابع عشر الهجري أي في طور التجديد والإصلاح كان أمام المفسرين المصلحين خياران؛ إما نقل ما في كتب التفسير من تراث ضخم والاكتفاء به، وإما نقد وتمحيص التراث وعدم الوقوف على آراء المفسرين الأوائل بحرفيتها، ولأنه ظهر في هذا الطور عدة تفاسير تجديدية، ومن صفات التجديد إحياء ما اندرس من أمر هذا الدين، وأول أصل في الدين هو القرآن الكريم، كان لزاماً عليهم أن يتعاملوا مع القرآن بتمحيص التراث وأخذ ما صفا منه، ثم إبراز صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، يقول صاحب

المنار: «فهل يعقل أنه يرضى بنا بأن نكتفي فيه بالنظر في قول من نظروا فيه قبلنا ممن لم يأتنا من الله وحي بوجوب اتباعهم لا جملة ولا تفصيلاً؟ كلاً يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته بعد أن يُحصِّل من وسائل الفهم ما يؤهله لذلك، مما اشترطه العارفون بهذا العلم»³⁹.

ووصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للقرآن مما يصدِّق هذه القاعدة: «إنه لا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»⁴⁰.

5.3 الإعجاز العلمي صورة التجدد: رأينا أنه من عوامل ظهور الاتجاه التجديدي في التفسير النهضة العلمية الحديثة، ولم تكن مسائل الاكتشافات العلمية وربطها بالقرآن مطروحة من قبل لعدم قيام الداعي لذلك، «حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود»⁴¹، ولعل ما امتاز به القرآن الكريم وما خص به من إعجاز، بالأخص من الناحية العلمية كان دافعا للعلماء المصلحين وهم يمارسون جهودهم الإصلاحية في مواجهة هذا الكم الهائل والزخم الكبير من الشبهات التي تحوم حوله من المتربصين به على مر العصور، أو من أبناء الإسلام المتأثرين بالحضارة الغربية وما وصلت إليه من اكتشافات، كل هذا قد ينجح في نظر البعض في إطفاء أو إخفات نور القرآن، ولكن كلام الله يتجدد فهمه بتجدد الأزمنة، وهو الذي عجزت أن تأتي الإنس والجن بمثله أو سورة منه أو آية: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾⁴²، لذلك تجد النزعة العلمية بارزة في تفاسير المجددين من عبد الرحمن الكواكبي إلى محمد عبده إلى ابن باديس والنورسي وغيرهم، بل برز علم مستقل بذاته؛ أقصد به الإعجاز العلمي في القرآن، وهو صورة من صور تفسير النص القرآني الذي يدل على حيويته.

وإذا رأينا الحقائق العلمية العجيبة كيف وردت في القرآن الكريم نعرف «بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول

إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن من عند رجل أمي عاش في بيئة أمية لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدما في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟»⁴³.

ومع القول بالإعجاز العلمي، وجعله مصدرا دالا على صدق الرسالة، وعلى وحدانية منزله، وبالتالي وسيلة للإصلاح لكل الأفراد والمجتمعات مهما تعددت مستوياتهم العلمية والثقافية، إلا أنه ينبغي التقيد بضوابط التفسير العلمي للقرآن الكريم حتى لا نخرج به عن كونه كتاب هداية، وهذه الضوابط المذكورة في مظانها عند علماء المناهج التفسيرية، أو الإعجاز العلمي في القرآن⁴⁴.

من خلال هذا المبحث يتضح جليا أن القراءة التدبرية المنضبطة بالمنهجية العلمية وبأصول التفسير الصحيح للنص القرآني تمثل أفقا عظيما في بيان أوجه حيوية وشبابة القرآن كلما شاب الزمان وتعددت القضايا والحاجات، وبالقراءة الموضوعية المتكاملة وإبراز البعد الهدائي الأصلي والتجرد من المقررات السابقة وإعمال الفكر السوي المنضبط، إضافة إلى استثمار أوجه الإعجاز المتعددة يُرسَّم منهجٌ خادِمٌ للحقيقة التي هي مُراد الله تعالى للبشر من خلال كلامه العظيم.

الخاتمة :

يُعتبر الخطاب القرآني كلاما فريدا مُعجِزا، تتجدد في كل زمانٍ آياته، ويأتي في كل عصرٍ نَصراً فتياً، ومع كثرة الكتب والمؤلفات والأبحاث والمقالات التي تعاملت مع النص القرآني من بداية النزول إلى هذا الزمان ظهرت مناهج عديدة بعضها منضبط بقواعد المنهجية الصحيحة في التعامل مع النص القرآني، وبعضها انحرف عن الطريقة المثلى، مما جعل سؤال حيوية النص القرآني وتجدده وإعجازه يُطرح في كل فترة، وقد دلّت على مسألة التجدد والإعجاز عدة دلائل وبراهين منها أن الخطاب القرآني أزلُّ أصلي والخطاب الديني متغير فرعي، ومنها أن إحياء المنهج التدبري الصحيح بملاحمه يفتح آفاقا رحبة وأبعادا عميقة في بيان حيوية النص القرآني وإعجازه، وقد خلصنا من خلال هذا البحث إلى أن الدعوة إلى تجديد الخطاب ينبغي ألا يتجاوز تجدد القرآن باعتباره المصدر الأول للتشريع ولا يكون ذلك إلا بقواعد وضوابط أقرها الباحثون، ومن النتائج كذلك أن ملامح التفسير في طور التجديد من الالتفات إلى تدبر القرآن كفن من الفنون والتفسير الموضوعي

وأوجه الإعجاز وعلاج حال الأمة بالقرآن كان نتاج الانطلاق من قاعدة الهداية المستمرة والمتجددة للقرآن الكريم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾⁴⁵

ومما يوصي به البحث ضرورة استحضار مسألة تجدد الخطاب القرآني في كل مراحل التعامل مع القرآن الكريم ، وضرورة إبراز جهود العلماء المحددين في بيان فاعلية القرآن وإعجازه ، كما أنه على الباحثين التصدي لحمولات الطعن في المصادر الأصلية للتشريع وأولها القرآن الكريم وذلك برد الشبهات التي يثيرها الحداثيون والمستشرقون لهدم قدسية النص القرآني وحججته المستمرة ، وكل ذلك يصب في جهود خدمة القرآن الكريم

المصادر والمراجع :

1. أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1366 هـ.
2. بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالح، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط4، 2004.
3. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.
4. عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل، دار القلم، دمشق، ط1، 1980م.
5. عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مجمع وترتيب مُجَّد توفيق شاهين ومُجَّد الصالح رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 2003م.
6. مُجَّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 2000م.

7. مُجَدِّدُ بَنِ عَرَفَةَ الدَّسُوقِيِّ، حَاشِيَةُ الدَّسُوقِيِّ عَلَى مَخْتَصَرِ الْمَعَانِي لِسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ، الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ، بَيْرُوتُ، ج 1، ص 492.
8. مُجَدِّدُ عَبْدِ الْعَظِيمِ الزَّرْقَانِيِّ، مَنَاهِلُ الْعُرْفَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، مَطْبَعَةُ عَيْسَى الْبَابِيِّ الْحَلَبِيِّ وَشُرَكَاهُ ، الطَّبْعَةُ 3 سَنَةِ 1431 هـ.
9. مُجَدِّدُ حَسَنِ الذَّهَبِيِّ، التَّفْسِيرُ وَالْمُفَسِّرُونَ، مَكْتَبَةُ مَصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ ، الْقَاهِرَةُ ، طَبْعَةُ 2004 -1424 هـ.
10. مُجَدِّدُ رَشِيدِ رِضَا- تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ - دَارُ الْمَعْرِفَةِ- بَيْرُوتُ-لُبْنَانُ- الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ- بِدُونِ سَنَةٍ
11. مُصْطَفَى مُسْلِمٍ، مَبَاحِثُ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ ، دَارُ الْقَلَمِ ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ 2005 م.
12. مُصْطَفَى مُسْلِمٍ، مَبَاحِثُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، دَارُ الْقَلَمِ، دِمَشْقُ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ، 2008 م.
13. مُجَدِّدُ الصَّالِحِ الصَّدِيقِ، تَأْمَلَاتُ فِي أَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بِدُونِ سَنَةٍ طُبِعَ.
14. مُجَدِّدُ فَتْحِ اللَّهِ كَوْلَنَ، أَضْوَاءُ قُرْآنِيَّةٍ فِي سَمَاءِ الْوُجْدَانِ، دَارُ النَّيْلِ، الْقَاهِرَةُ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ، 2006 م.
15. صِلَاحُ عَبْدِ الْفَتَّاحِ الْخَالِدِيِّ، مَفَاتِيحُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْقُرْآنِ، دَارُ الْقَلَمِ ، دِمَشْقُ ، الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ، سَنَةِ 2003 م.
16. نُورُ الدِّينِ عَتَرَ، عُلُومُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَطْبَعَةُ الصَّبَاحِ، دِمَشْقُ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى، 1414 هـ.
17. مَنصُورُ كَافِي، مَنَاهِجُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِ، دَارُ الْعُلُومِ لِلنَّشْرِ، عَنَابَةُ ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ، سَنَةِ 2006.

18. مُجَدِّدُ دِرَاجِي، مُحَاضِرَاتٌ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَمَنَاهِجِ الْمُفَسِّرِينَ، دَارُ غُبَرِيْنِي لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ ،
الجزائر ، الطبعة الأولى ، سنة 2005.

المقالات والبحوث والمؤتمرات :

19. مُجَدِّدُ السَّيِّدِ مَرْعِي، "توظيف الوسائل التكنولوجية المعاصرة في تطوير الخطاب الإسلامي"،
مؤتمر اتحاد علماء المسلمين، 2012م.

20. الشريف حبيلة، "الخطاب الديني وإشكالية المفهوم"، مجلة الآداب واللغات، العدد1،
جوان 2015م.

21. مُجَدِّدُ بَنِ شَاكِرِ الشَّرِيفِ، "تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف"، مجلة البيان،
الرياض، 1425هـ، ط1.

الهوامش:

1. سورة الفرقان ، الآية 32.
2. جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة 3 ، 1414 ، ج 1 ص 361.
3. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة القاهرة 243/1
4. مُجَدِّدُ بَنِ عَرَفَةَ الدَّسُوقِيِّ ، حَاشِيَةُ الدَّسُوقِيِّ عَلَى مَخْتَصَرِ الْمَعَانِي لِسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ (المكتبة العصرية ، بيروت) 492/1
5. جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب (دار صادر ، بيروت ، الطبعة 3 ، 1414) 128/1
6. نورالدين عتر ، علوم القرآن الكريم (مطبعة الصباح - دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ) ص 10
7. د. مُجَدِّدُ السَّيِّدِ مَرْعِي - بحث توظيف الوسائل التكنولوجية المعاصرة في تطوير الخطاب الإسلامي " - مؤتمر اتحاد علماء المسلمين 2012.
8. انظر بالتفصيل مقال الخطاب الديني وإشكالية المفهوم - أ.د الشريف حبيلة - مجلة الآداب واللغات -العدد1 جوان 2015
9. مُجَدِّدُ بَنِ شَاكِرِ الشَّرِيفِ-تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف - مجلة البيان 1425 هـ -ط1 الرياض 2004 -ص 29.
10. رواه أبو داود سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، باب ما يذكر في قرن المائة ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، ج4 ص 109.

11. أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابير ، ج 4 ، ص 1986 ، رقم 6564 ، من حديث أبي هريرة .
12. أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1366 هـ ، ج 2 ، ص 324 .
13. جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب (دار صادر ، بيروت ، الطبعة 3 ، 1414) ج 4 ص 268.
14. مُجَدُّ الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط 1 سنة 2000 ج 23 ص 149
15. عبد الرحمن حبنكة الميداني ، قواعد التدبير الأمثل ، دار القلم دمشق ، ط 1 سنة 1980 ، ص 4.
16. سورة مُجَدُّ ، الآية 24.
17. سورة ص ، الآية 29.
18. بديع الزمان سعيد النورسي :الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط 4 ، سنة 2004 ص 471.
19. سورة الإسراء- الآية 09.
20. سورة المائدة- الآية 16.
21. مُجَدُّ دراجي، محاضرات في علم التفسير ومناهج المفسرين، دار غبريني للطباعة والنشر ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، سنة 2005 ص 226-227.
22. مُجَدُّ رشيد رضا- تفسير القرآن الحكيم - دار المعرفة- بيروت-لبنان- الطبعة الثانية- بدون سنة- ج 1- ص 10.
23. -انظر عبد الحميد ابن باديس تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير - مجمع وترتيب- مُجَدُّ توفيق شاهين- مُجَدُّ الصالح رمضان- دار الكتب العلمية- بيروت -لبنان- الطبعة الثانية- 2003- صفحات 319-325-329-335-337.
24. -عبد العظيم الزرقاني- مناهل العرفان في علوم القرآن- ج 2- ص 89.
25. - سورة الأنعام- الآية 59.
26. - سورة لقمان- الآية 34.
27. - رواه البخاري- كتاب الإيمان 20/6 ومسلم- كتاب الإيمان- 80/1.
28. - مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة 2005 م ، ص 16.
29. - المصدر نفسه - ص 16.
30. - المصدر نفسه- ص 31.
31. - في قوله تعالى : " كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ " سورة الحجر ، الآية 90-91
32. - منصور كافي- مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق- ص 117.
33. - سورة المائدة- الآية 15.
34. - عبد الحميد بن باديس- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير- ص 330.
35. - مُجَدُّ رشيد رضا- تفسير القرآن الحكيم- ج 1- ص 20.
36. - عبد الفتاح الخالدي- مفاتيح للتعامل مع القرآن- ص 121.

- ³⁷ - نقلًا عن مُجدِّد الصالح الصديق - تأملات في أسرار القرآن الكريم - دار المعرفة - بدون سنة طبع - ص 131.
- ³⁸ - مُجدِّد فتح الله كولان - أضواء قرآنية في سماء الوجدان - دار النيل - القاهرة - الطبعة الثانية - 2006 - ص 24.
- ³⁹ - مُجدِّد رشيد رضا - تفسير القرآن الحكيم - ج 1 - ص 20.
- ⁴⁰ - رواه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب رقم 2906 ، وذكر بأن إسناده مجهول وفي الحارث بن الأعور مقال.
- ⁴¹ - مُجدِّد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة مصعب بن عمير ، القاهرة ، طبعة 2004 - 1424 هـ ، ج 2 - ص 194.
- ⁴² - سورة الإسراء - الآية 88.
- ⁴³ - مصطفى مسلم - مباحث في إعجاز القرآن - دار القلم - دمشق - الطبعة الرابعة - 2008 - ص 228-229.
- ⁴⁴ - انظر مصطفى مسلم - مباحث في إعجاز القرآن - ص 160-165
- ⁴⁵ . سورة الإسراء ، الآية 09.